﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

[الصافات: 167 - 170]

❁ مُناسَبَةُ الآيات لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من دحض المزاعم إلى التَّهديد والوعيد

لـمّا ذكرتِ الآيات السّابقة مزاعم المشركين الباطلة في الملائكة، ودحضَها بأقوال الملائكة أنفسِها، باعترافها لله بالعبوديَّة؛ ناسب أن يرجعَ الكلام إلى ذِكر مقالةٍ أخرى من مقالات المشركين الكاذبة[1]، لتوبيخهم بالوعيد والتَّهديد.

❁ شرح المفردات:

1) ﴿ذِكۡرٗا﴾: (ذكر) أصلٌ يدلُّ على خلاف النِّسيان، تقول: ذَكَرْتُ الشَّيءَ، خِلافُ نَسيتُهُ، ثمَّ حُمِلَ عَليهِ الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنكَ عَلى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ، أي: لا تَنْسَهُ[2]، كما يُطلَقُ الذِّكْرُ على حضور الشَّيءِ القلبَ أو القولَ، ولذلك قيل: الذِّكْرُ ذِكران: ذِكرٌ بالقلب، وذِكرٌ باللِّسانِ[3]، ومعنى ﴿ذِكۡرٗا﴾ في الآية: هو كتابٌ سماويٌّ من عند الله ﷻ، كتوراةِ موسى وإنجيلِ عيسى عليهما السلام[4].

2) ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: (أول) أصلان؛ أحدُهما: ابتداء الأمر وانتهاؤه، فـ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ جمعُ: (أوَّلٍ)، وهو ضِدُّ الآخِر، وقيل: أصلهُ (وَوْل)، فقُلِبَتِ الواوُ الأولى همزةً، وأُدغِمَت إحدى الواوين في الأخرى، فقيلَ: أوَّلٌ. ومعناهُ: كونُ الشَّيءِ ابتداءً وسبْقًا في أمرٍ لجميع جنسِه، فيكونُ كلُّ ما يماثلهُ فيه تاليًا لهُ، أي: كائنًا بعدهُ، والأوَّل: يكون كذلك

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 24/ 288.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(3) الراغب، المفردات: (ذكر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.

بانضمام ثانٍ وثالثٍ إليه بعدَهُ، والأوَّل: الأسبقُ، كقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: 96][1]، والأوَّلون في الآية: هم بنو آدمَ مِنَ الأمم السّابقةِ.

3) ﴿عِبَادَ﴾: (عبد) أَصلٌ يدلُّ على لينٍ وذُلٍّ[2]، فالنّاس كلُّهم عِبادُ اللّه، بل الأشياء كلُّها كذلك، لكنَّ بعضها بالتَّسخير، وبعضَها بالاختيار[3]، والعبوديَّة قسمان: عامَّة وخاصَّة، فالعبوديَّة العامَّة: عبوديَّةُ أهل السَّماوات والأرض كلِّهم للّه، فهذه عبوديَّة القهر والملك، والعبوديَّة الخاصَّة: عبوديَّة الطّاعة والمحبَّة واتِّباع الأوامر[4]، وهي المقصودة في الآية.

4) ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾: (خلص) أصل واحد مُطَّرِد، وهو تنقيةُ الشَّيءِ وتهذيبُهُ؛ يقولون: خَلَّصْتُهُ من كذا، وخَلَصَ هوَ[5]، والخالِص ما زال عنه شَوْبُهُ بعد أن كان فيه، بخلاف الصّافي، الَّذي قد يُقال لما لا شَوْبَ فيه، فحقيقةُ الإخلاص: التَّبرّي عن كلِّ ما دون اللّه تعالى[6]، ومِن معنى جَعلِ الشَّيء خالصًا صافيًا ورَدَ كلٌّ من مخلِص ومخلِصين بكسر اللّام، أي: الموَحِّدون، الَّذين أخلصوا دينَهم للّه، وأمّا بفتح اللام؛ فهُم الَّذين أخلصهم اللّهُ لرسالته، وهذا معنى كُلِّ المخلَصين في القرآن[7]، وكِلا المعنيين مقصودٌ في الآية، فقد وردَتِ القراءة بفتح اللّام وبكسرها[8].

❁ المعنى الإجماليُّ:

تكذيبُ المشركين للرَّسولِ الأمين بعد إقرارهم بالحقِّ المبين

تُبيِّن الآية الكريمة أنَّ هؤلاء المشركين من قريش كانوا يقولون

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أول)، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وول).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(3) الراغب، المفردات: (عبد).
(4) ابن القيّم، مدارج السّالكين، ص: 180.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلص).
(6) الراغب، المفردات: (خلص).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خلص).
(8) ابن الجزري، النشر: 02/ 295.

قبل أن يبعثَ إليهم محمَّد ﷺ نبيًّا: لو جاءنا من الكُتُبِ والأنبياء ما جاء الأوَّلين قبلَنا، لكنّا عبادَ الله المُجتبينَ بالإيمان، المخلِصين في العبادة، لكن جاءهم ذكرُ الأوَّلين وعِلمُ الآخرين، في أكمل الكُتُبِ على أفضل الرُّسل، وهو ما نزل على محمَّد ﷺ من الكتاب والحكمة: كفروا به، فسوف يعلمون ما لهم مِنَ العذاب في الآخرة[1]؛ لمخالفتهم ما كانوا يقولونه قبل البعثة، وما ذلك إلّا بسبب كفرِهم وعنادهم.

❁ الإيضاح اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

ترتيبُ الوعيدِ على مقالة المشركين بعد إبطال الافتراء

الواو في قَوْل الله تَعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ عاطفةٌ الآيةَ على السّابق، فهي مقالةٌ أخرى من مقالات المشركين الباطلة، معطوفةٌ على ما تقدَّمها من ذِكر كفر المشركين وقولهم بتعدُّد الإله، وبإنكار البعث، وما وصفوا به الرَّسولَ ﷺ من السِّحرِ والجنون، ثمَّ بما نسبوا لله ممّا لا يليق بإلهيَّتِهِ[2]، وغرض العطف: بيانُ ما يترتَّب على هذه المقالة من الوعيد، بعد دحض المعتقد الزّائف.

نوعُ (إنْ) وتوجيهها:

احتمال حرف (إن) للنَّفي والتَّأكيد

تحتمل (إنْ) في قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ أن تكون نافيةً، وتكون اللام في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ بمعنى (إلّا)، ويحتمل أن تكون مخفَّفةً من (إنَّ) المشدَّدةِ المستعملةِ للتَّوكيد، وتكون اللّامُ في ﴿لَيَقُولُونَ﴾ هي الفارقة بين (إنْ) المخفَّفة من الثَّقيلة وبين (إنْ) النافية، واسمها ضمير شأن محذوف، والأخير هو الراجح كما ذكره الآلوسي[3]، وعليه فهي تفيد أن القوم قد قالوا ذلك بالفعل، ولم يتقوّله أحدٌ عليهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 655، نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 452.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 148.

نكتةُ تتابع المؤكِّدات:

تتابعت المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾، بـ(إنْ) مع اللّامِ، وبضمير الشَّأن، وفي هذا تسجيلٌ عليهم بتحقيق وقوع ذلك منهم، وليسدَّ عليهم باب الإنكار[1].

غرضُ ذكرِ ﴿كَانُواْ﴾:

مقالةُ المشركين كانت حكايةً ثابتةً لا واقعةً نادرة

آثرَ النَّظم الكريم ذِكرَ فعل الكون الماضي المسنَدِ لواو الجمع في قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مقالتهم هذه كانت ثابتةً لهم، وكانوا يقولونها على الدَّوام، وليست قولًا عابرًا، والإخبار عن الشَّيء بصيغة الماضي يقتضي كونَ المخبَر عنه متقدِّمًا على ذلك الإخبار[2]، فقد قالوا هذه المقالةَ قبل بعثة الرَّسول ﷺ، ثمَّ ظهر منهم بعدَ البعثة التَّكذيبُ والنُّفورُ البليغ.

تعيين مرجع الضَّمير:

المشركون هم أصحابُ الأقوال المتناقضة

يعود الضَّمير في قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ﴾ على جماعة المشركين الذين حكى عنهم القرآن في هذه السّورة أباطيلَهم المُنكَرةَ من قولهم بتعدُّدِ الإله، وإنكار البعث، وما وصفوا به الرَّسول ﷺ من السِّحر والجنون، ثمَّ بما نسبوا لله ما لا يليق بإلهيَّته[3]، كلُّ ذلك بعدَ أن تمنّوا أن يكون لهم ما كان للسّابقين.

نوع اللّام في ﴿لَيَقُولُونَ﴾:

احتمالُ اللّام أن تكون الفارقة وبمعنى الاستثناء

اللامُ في قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ إمّا أن تكونَ بمعنى الاستثناءِ إذا كانت (إن) نافية، وإما أن تكونَ الفارقة بين (إن) المخفَّفة من الثَّقيلة والنّافية، وقد رجح الآلوسي الرأي الأخير[4]، وعليه تكون اللام فارقةً أفادت تأكيد كفار قريش قولهم مع تجدده الذي أفادته صيغة المضارع.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 283.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 148.

دلالةُ التعبير بصيغة المضارع:

تـكـرُّرُ المَـقـال لا يـعـنـي صِـــدقَ القائل

ورد في قول الله تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ فعلُ (يَقولونَ) بصيغة المضارع الدّالَّةِ على التَّجدُّدِ، للإشعار بتكرُّرِ هذا القول منهم، فهو وإن صدر عنهم في الماضي، إلّا أنَّهم كثيرًا ما كانوا يردِّدون مضمونَه قبلَ مجيء الرَّسول ﷺ إليهم، بأنْ لو كان عندهم كتابٌ من كتب الأوَّلين - كالتَّوراة والإنجيل - لكانوا من عبادِ الله المخلصين له بالعبادة والطّاعة[1].

معنى ﴿لَوْ﴾:

اشـتـراطُ الأمـاني عـنـد الـكـاذبـين مـجـلـبـةٌ لـلـنَّـدم عـنـد مـجـيء الحقِّ المبين

أداة ﴿لَوْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ حرفٌ للشَّرط، وهي للدَّلالة على امتناع الشَّيء لامتناع غيره، فإذا دخلت على النَّفي؛ صيَّرته إلى الإثبات، ولو دخلت على الإثبات؛ صار بمعنى النَّفي[2]، فالمشركون زعَموا قبل بعثة النَّبيِّ ﷺ أنَّ امتناع كونهم من عباد الله المخلصين إنَّما سببُه امتناعُ وجود ذِكرٍ كذِكر الأوَّلين بين أيديهم، ثمَّ أرسل الله إليهم خيرَ رسول وخيرَ ذِكرٍ، فكفروا به، فظهر بذلك كذبُهم وزَيْفُ ادِّعائهم، وسيعلمون عاقبةَ كفرِهم ومآلَ جحودهم.

غرَضُ أسلوب الشَّرط:

الـشَّـرط يُـراد به الطَّلب وتحقيق الغرض

ورد أسلوب الشَّرط في قول الله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وغرضُه البلاغيُّ: تعليقُ الجواب على حصولِ مضمونِ الشَّرط، فيحصل الثّاني بحصول الأوَّل، فالمشركون اشترطوا إنزالَ كتابٍ من عند الله كالتَّوراة والإنجيل؛ ليكونوا عبادَ الله المخلصين، فلمّا تحقَّق الشَّرطُ ببعثة النَّبيِّ ﷺ؛ كفروا، وأخلفوا الله ما وعدوه، وكذبوا فيما كانوا يدَّعونه،

(1) الطّنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 118.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/ 61.

فهُم اشترطوا وجود الذِّكر للعبادة، فلمّا وُجد؛ نكسوا عن الصِّراط، فخالفوا ما اشترطوه، وبادروا الكفرَ بالتَّكذيب، ففي استعمال الشَّرط هنا بيانُ أنَّ ما تمنَّوه إنَّما هو أمانٍ كاذبةٌ، صدرت عن الرَّغبة في تقليد أهل الكتاب.

غرضُ تقديم الظَّرف:

طلب الاختصاص بكتابٍ كما خُصَّ الأوَّلون

قُدِّم ذِكرُ الظَّرف ﴿عِندَنَا﴾ في قول الله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ على اسم ﴿أَنَّ﴾ - وهو ﴿ذِكۡرٗا﴾ - للاختصاص، أي: (لو أنَّ عندهم كتابًا خاصًّا بهم، كما خُصَّ الأوَّلون بكُتُبٍ وذكرٍ)، فقد رغِب المشركون في الجاهليَّة بأن يخُصَّهم الله سبحانه بكتابٍ سماويٍّ من عنده، نظيرَ كُتُبِ الأوَّلين من التَّوراة والإنجيل، فخصَّهم الله سبحانه بأفضلِ الرُّسل، وبأفضلِ كتاب، كما طلبوا بأسلوب الشَّرط، لكن كذَّبوا، وكفروا، فسوف يعلمون مآلَ كذِبهم.

نكتةُ تنكير ﴿ذِكۡرٗا﴾:

طلبُ ذكرٍ عظيم يكتسبون به العَظَمة

جاء لفظُ ﴿ذِكۡرٗا﴾ في قول الله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مُنَكَّرًا، والغرضُ من تنكيره الإبهامُ والعموم، فهُم يريدون ذِكرًا يختصّون به كما هو الأمر بالنِّسبة لغيرهم، والإبهام له علاقة مباشرة بالتَّعظيم والتَّفخيم، فإنَّ من أراد أن يُعظِّم شيئًا؛ أبهمه بحيث لا يُكتَنَهُ وصفُه، وتذهب النَّفس فيه كلَّ مذهبٍ، وتتشوَّق إلى معرفة خبره وتفصيله.

نكتةُ التَّعبير بالمصدر ﴿ذِكۡرٗا﴾:

بيانُ رغبةِ المشركين من نزول الكتاب عليهم

أوثِرَ التَّعبيرُ بالمصدر ﴿ذِكۡرٗا﴾ في قول الله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وهو مصدر (ذَكَرَ)؛ إذا تلفَّظَ، وذَكَرَ؛ إذا خطر ببالهِ شيءٌ، ومعناه هنا الكتابُ المقروء، سُمِّيَ ﴿ذِكۡرٗا﴾؛ لأنَّه يُذَكِّرُ النّاس بما يجب عليهم، ولأنَّ فيه التَّذكيرَ بالله واليوم الآخر، وتسمية القرآن ﴿ذِكۡرٗا﴾ تسمية لم يكن للعرب علمٌ بها قبل أن تنزلَ،

فصار الذِّكْرُ صنفًا من أصناف الكلام الَّذي يُلقى للنّاس لقصد وعيه وتلاوته[1]، أو سُمّي ﴿ذِكْرًا﴾؛ لأنَّ به ذكرَهم في الآخرين، وقد شملها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: 10]، وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: 44]، ومرادُهم بذلك التَّمنّي أن يكون لهم شرفٌ عظيم، وذِكرٌ في العالمين، وأن يكونَ لهم ما يذكِّرهم باللّه، ويُرشِدهم إلى عبادته الخالصة، ليصيروا من عباده المُصطَفَين، كما كان لبقيَّة الأمم المتقدِّمة.

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

يحتمِل حرف ﴿مِّنَ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أن يكونَ للجنس، أو للابتداء: فعلى كون ﴿مِّنَ﴾ جنسيَّةً؛ فقد اشترط المشركون كتابًا من جنس كُتُبِ الأوَّلين، مثلَها في كونها من عند اللّه تعالى، به يتذكَّرون، وبه يشرُفون كما تذكَّر الأوَّلون بكُتبهم، وشَرُفوا بها، وعلى كونها ابتدائيَّةً يكون المشترَط ذِكرًا جائيًا من الرُّسل الأوَّلين، أي: مثل موسى وعيسى[2].

رغبةُ المشركين في إنزال اللّه عليهم كتابًا مثلَ الكُتُبِ السّابقة

معنى تعريفِ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾:

التعريف بـ(ال) في قول اللّه تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ للجنس، فالمقصود عمومُ الرُّسل السّابقين الذين أُنزِلَ عليهم كتابٌ سماويٌّ، كتوراةِ موسى وإنجيلِ عيسى عليهما السلام[3].

معنى اللّام في ﴿لَكُنَّا﴾:

اللّام في قول اللّه تعالى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ واقعةٌ في جواب ﴿لَوْ﴾، وهي لبيان زعْم المشركين أنَّهم سيصيرون إلى عباد اللّه المخلصين بشرط أن يتحقَّق اختصاصُهم بكتابٍ من عند اللّه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 16.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 148، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 193.

نكتةُ مجيء جواب الشَّرط ماضيًا:

توكيدُ تحقُّق إيمان المشركين عند تحقُّق نزول الذِّكر الحكيم

استُعمل فعل الكون (كنّا) ماضيًا في قول الله تعالى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ - وهو جوابٌ للشَّرط المتقدِّم في قولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ للدَّلالة على التَّحقُّق، فزعموا أنَّ اتِّصافهم بالعبوديَّة والإخلاص ثابتٌ كثبوت ما وقع في الزَّمن الماضي؛ لو تحقَّق نزولُ كتاب من عند الله عليهم من جنس التَّوراة والإنجيل، وهذا نظيرُ قولِه تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: 157]، فغرضُ التَّعبير بفعل الجواب ماضيًا: الدَّلالةُ على تحقُّق ذلك المَشروط له منهم ويقينيَّته.

بلاغةُ القصر وغرضه:

مبالغةُ المشركين في بيان رغبتهم فـــي إخـــلاص العبوديَّة

تضمَّن قولُ الله تعالى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ صيغةَ قصر بتعريف الجزأين؛ فالمسند إليه معرَّفٌ بالإضمار، والمسند معرَّفٌ بالإضافة، فلمّا وُصِف المسنَد بـ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وهو معرَّفٌ بلام الجنس؛ حصل قصر عباد الله الَّذين لهم صفة الإخلاص في المسند إليه، أي: (لكنّا عبادَ الله المخلصين دون غيرنا)، وهذا قصرٌ ادِّعائيٌّ للمبالغة في ثبوت صفة الإخلاص لهم، حتّى كانوا شبيهين بالمنفردين بالإخلاص لعدم الاعتداد بإخلاص غيرهم في جانب إخلاصهم، وهذا يؤوَّل إلى معنى تفضيل أنفسِهم في الإخلاص لله حينئذٍ، كما صُرِّح به في قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: 157][1]، وهو ما يدلُّ على مبالغتهم فيما ادَّعوهُ مِنَ الإخلاص في العبادة، وقدرتِهم على الإفصاح عن معانٍ تدلُّ على الصِّدق العالي، والرَّغبة الجموح، وهم على عكس ما ادَّعوه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 194.

نكتةُ إضافة العباد إلى اسم الجلالةِ:

من خـصَّ اللـه بالعبادة كان من أهله المخلَصين

الإضافةُ في قول الله تعالى: ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بمعنى لام الاختصاص، أي: (لكنّا عبادًا لله)، فالإضافةُ تُفيد تشريفهم باختصاصهم عبادًا له سبحانه دون غيرهِ، كما أرادوا بأسلوب القصر اختصاصَهم أيضًا بكونهم عبادًا له دون سائر المخلوقات، والمعنى: أنَّهم كانوا يزعمون بأنّ لو عندهم ذكرٌ من الأوَّلين؛ لصاروا أهلًا للإضافة إلى المحيط بصفات الكمال، كالذين وصفوا في قول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: 63][1]، وفيه مزيد عناية بإبراز صفات الخضوع والانقياد لله تعالى، فهُم يريدون بهذه الإضافة أن يتَّصفوا بصفة العبوديَّة، الشّاملةِ لكلِّ أسباب الهداية والخضوع لأمر الله وتوحيده.

نوع الفاء ودلالتها:

العِبرة بما يصدُر عـن الـقـلـوب، لا بما تلهَج به الألسُن

الفاءُ في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ تحتمل أن تكون للتَّعقيب على فعل ﴿لَيَقُولُونَ﴾، أي: استمرَّ قولُهم حتى كان آخره أن جاءهم الكتابُ، ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾، وتحتمل أن تكونَ للتَّفريع على فعل ﴿لَيَقُولُونَ﴾، وهو بيانٌ لما استكنَّ في القلوبِ، لا لبيان ما نطقت به الألسن، وتحتمل أن تكونَ الفصيحةَ، وهي الَّتي تُفصِح عن جواب شرط مقدَّر، والتَّقدير: (فجاءهم ذكرٌ، فكفروا به)، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: 42][2]، وهو ما يُفيد العجبَ من كفرهم، أي: أقسموا بالله على وعدِهم بالإيمان، ثمَّ لمّا جاءهم الحقُّ كفروا به!

نوعُ الباء ودلالتها:

الباءُ في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ لتعدية فعل (كفَر)،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 313.

(2) درويش، إعراب القرآن: 08/ 321، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 194.

والضَّمير المجرور بالباء ﴿بِهِۦ﴾ عائدٌ إلى الذِّكر الَّذي رغِبوا فيه، فالمشركون كفروا بالقرآن وبالنَّبيِّ الَّذي أُنزِل عليه بعدَ كلِّ الَّذي زعموه من ادِّعاء الإيمان والإخلاص[1].

أعجبُ العجب أن يقعَ الكفرُ بالمطلوب المنتظر

دلالة الفاء البيانيَّة:

الفاءُ في قَوْل اللّه تَعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ رابطةٌ لجواب الشَّرط المقدَّر، أي: (إن جاء وقتُ حسابهم؛ فسوف يعلمون عاقبةَ كفرِهم)، واستعمال الفاء دالٌّ على التَّعقيب وسرعة نزول العقاب بهم جزاءَ كفرِهم، ويمكن أن تكونَ الفاء للتَّفريع، وهي الَّتي يكون ما بعدها نتيجةً لما قبلها، ففُرِّع تهديدُهم بالعقاب عن كفرِهم بالكتاب وبالرَّسول المنزَّل عليه.

سوف يعلم الكافرُ جزاءَ كفرِهِ

معنى (سوف) ودلالتها:

(سوف) حرف تسويف وتنفيس أو استقبال، وهي أوسعُ زمانًا من السّين عند البصريّين؛ لأنَّ كثرة الحروف تدلُّ على كثرة المعنى، وهي مرادفةٌ لها عند غيرهِم، والغرضُ مِن استعماله في قول اللّه تَعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تأكيدُ الوقوع؛ لأنَّ حرف التَّنفيس يؤكِّد المستقبل، وهو يتضمَّن ترقُّبَ ذلك التَّهديدِ وانشغالَ البال بما يوحيه ذلك مِنَ الوعيد، فكلَّما طالت مدَّة انتظارهم الوعيدَ؛ زاد عذابهم واضطرابهم وخوفهم من وقوعه، وهو أبلغُ في إيلامهم وتوجُّعهم[2].

ترقُّب التَّهديد وانشغال البال بما يوحيه مِنَ الوعيد

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

دلَّت صيغة المضارع في قول اللّه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ على الاستقبال بقرينة الحرف (سوف)، وفي هذا الاستقبال كناية عن التَّهديد والوعيد؛ لأنَّ إخبارهم بأنَّهم سيعلمون يفيد علمَ وقوعِ سوء

الكنايةُ عن وقوع العذاب في اليوم الموعود

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 02/ 329.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 08/ 91.

العاقبة لهم مستقبلًا - لا محالة - والمقصود به عذابُ يوم القيامة، فهو اليومُ الموعود لجزاء الكافرين بكفرِهم.

غرضُ الجملة الخبريَّة:

التَّهديدُ الشَّديد والوعيد الأكيد جزاءُ التَّكذيبِ

خرج الخبرُ في قول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ مخرجَ التَّهديد والوعيد، فكفّارُ قريشٍ - بعد أن جاءهم ما تمنّوا الحصولَ عليه من الذِّكر والكتاب المهيمن على كلِّ الكُتُبِ - أعرضوا عنه، وكفروا به، فهدَّدهم الله سبحانه بأنَّهم سوف يعلمون عاقبةَ عنادهم وما سيحُلُّ بهم من نقمته وعذابه، ولا يخفى ما في هذا الأسلوب مِنَ الوعيد الأكيد، والتَّهديد الشَّديد، على كفرِهم بربِّهم، وتكذيبهم برسولهِ ﷺ[1].

نكتةُ حذفِ المفعول:

إبهامُ العذابِ تحقيرٌ وتصغير لشأن الموعود به

حُذِفَ المفعولُ في قول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾؛ لقصد الإبهام والعموم المناسِب للتَّهديد والوعيد؛ لتذهب النَّفسُ في تخيُّل ما ينتظرهم كلَّ مذهبٍ، فالمشركون سيعلمون عاقبةَ كفرِهم وغائلته، وسيندمون على كفرِهم وتكذيبهم، ولمزيد التَّوبيخ والتَّقريع، فإنَّ إبهام العذاب فيه مزيدُ توبيخٍ وتحقير للموعود بالعذاب.

(1) المراغي، التّفسير: 23/ 90.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»